

2012

## عود الضمير في القرآن الكريم

أ.د. دريد حسن أحمد  
كلية الآداب الجامعة العراقية

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/midad>



Part of the [Arabic Studies Commons](#)

### Recommended Citation

"عود الضمير في القرآن الكريم" (2012) أحمد, أ.د. دريد حسن, *Midad AL-Adab Refereed Quarterly Journal*: Vol. 2 : Iss. 1 , Article 5.  
Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/midad/vol2/iss1/5>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Midad AL-Adab Refereed Quarterly Journal by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact [rakan@aarj.edu.jo](mailto:rakan@aarj.edu.jo), [marah@aarj.edu.jo](mailto:marah@aarj.edu.jo), [u.murad@aarj.edu.jo](mailto:u.murad@aarj.edu.jo).

# عُود الضمير فلي القرآن الكريم

أ.د. دريد حسن احمد الصالح

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد، فهناك وجوه كثيرة من الاعجاز القرآني يعرفها الباحثون على وجه العموم كالاعجاز في إيجازه، وحقيقته ومجازه، وكنايته، واستعارته، وتقديمه وتأخيرته، وغير ذلك . إلا أن هناك وجوهاً أخرى من الاعجاز لا تقل شأنًا عن هذه الوجوه قد غفل عنها كثير من الناس، منها الاعجاز في عود الضمير، إذ تفنن الأسلوب القرآني في هذه الظاهرة بشكل ملفت للنظر، والاحتمالات الكثيرة لعود الضمير هو دليل الاعجاز كما صرح بذلك الأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة إذ لا يحيط بهذا النص باحث، وهو نظير اختلاف المفسرين في وجوه إعراب القرآن، والنص القرآني يحتمل وجوهاً متعددة وهذا هو أحد مكامن الاعجاز، فقد يعود الضمير إلى الأقرب، أو المتحدث عنه، أو المسكوت عنه، أو يعود إلى الواحد وهو يقصد الاثنين وغير ذلك . وتظهر أهمية موضوعنا في أنه أحد الأسباب المهمة لاختلاف المفسرين في عود الضمير، كالخلاف في القراءات، والإعراب، والاشتراك اللفظي، والحقيقة والمجاز .

والضمائر لا تخلو من الإبهام والغموض وخصوصاً ضمير الغائب فصاحبه غير معروف لأنه غير حاضر وغير مشاهد فلا بد لهذا الضمير من شيء يفسره ويوضح المراد منه، ويسمى هذا المفسر الموضح مرجع الضمير .

كما نحب أن ننبه إلى أن اختلاف المفسرين في عود الضمير ليس اختلاف تباين وتضاد وإنما هو اختلاف تنوع وأجتهاد وتوسعة في المعنى في الأعم الأغلب كما هو شأن الخلاف في القراءات القرآنية وقد القينا في

هذا البحث الضوء على هذه المسألة وعزناها بالشواهد القرآنية ووثقناها بالمصادر والمراجع التي لها تعلق بهذا الموضوع، والله المستعان .  
من المعلوم في نحو العربية أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، وكذلك في القرآن الكريم، هذا هو الخط العام في عود الضمير. وفي موضوع ضمير الغائب ذكر الأستاذ عبد الخالق عزيمة هذه القاعدة في مقدمة بحثه فقال: (يعود الضمير على الأقرب ويجوز مع القرينة أن يعود على الأبعد)<sup>(١)</sup>

إلا أن عود الضمير على الأقرب ليس على إطلاقه فهو مشروط بان لا يكون قبله متضايان، ففي هذه الحالة يكون عود الضمير على المضاف إلا إذا كان المضاف كلمة (كل) أو (جميع) والأكثر في هذه الحالة عود الضمير على المضاف إليه<sup>(٢)</sup> .

والشرط المهم لعود الضمير على أقرب مذكور هو أن لا تكون هناك قرينة تصرف الضمير لغير الأقرب، إذ القرينة عليها يتوقف فهم الكلام وهي المعول عليها ولها الأفضلية ليس في موضوع الضمير فحسب وإنما في كل الأحكام النحوية، والذي يتصفح كتاب (النحو الوافي) للأستاذ عباس حسن يجد مصداق كلا منا هذا، ويضرب الأستاذ عباس مثالين على القرينة، فقولك: (اعتنيت بغلاف كتاب تخيرته) الضمير يعود على المضاف وهو (غلاف) مراعاة للأكثر بخلاف قولك: (تخيرت غلاف كتاب صفحاته كثيرة) فالقرينة وهي قولك: (صفحاته) تدل على أن الضمير يعود إلى الكتاب أعني إلى المضاف إليه<sup>(٣)</sup> .

(١) دراسات لاسلوب القرآن الكريم لمحمد عبد الخالق عزيمة ٢٣/٨

(٢) النحو الوافي لعباس حسن ٢٥٦/١

(٣) ينظر النحو الوافي ٢٥٦/١

### عود الضمير في القرآن الكريم

ومن القرينة عرفنا أن الضمير يعود الى الله تعالى وهو البعيد في قوله تعالى : ﴿ ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُّسْتَحْفِلِينَ فِيهِ ﴾ (الحديد ٧) فالضمير المستتر في (جعلكم) يعود الى الله تعالى وليس الى الرسول<sup>(١)</sup>. وهكذا فان الخط العام هو أن يعود الضمير الى أقرب مذكور كما قلنا ، فاذا قلنا: (جاء محمد وخالد اكرمته) فالضمير يعود على خالد لأنه الأقرب، وفي قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ ﴾ (يونس ٥)

الضمير في (قدره) يعود على القمر لأنه الأقرب<sup>(٢)</sup>. وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ؕ مَلَأَ آيَاتِكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۖ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (الحج ٧٨) فالضمير (هو) راجع الى الله تعالى<sup>(٣)</sup> وقيل الى (ابراهيم) وهو أقرب مذكور<sup>(٤)</sup> وأحيانا يعود الضمير على المتحدث عنه وليس للقرب والبعد أثر في عود الضمير هنا، نحو قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْوَدَقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ (الروم ٤٨) فالضمير في قوله (من خلاله) يعود الى السحاب وهو المتحدث عنه في سياق الآية، إذ تقول الآية في أولها ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدَقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ فالحديث ينصب على السحاب ولذلك عاد الضمير عليه. ومثل هذا النوع لا يكاد يظهر خلاف في عودة الضمير، فالآية واضحة لا تحتاج الى طول نظر في سبيل الحكم على عودة الضمير، إلا ماورد نادرا من آراء

(١) جامع الدروس العربية لمصطفى الغلاييني ٩٥/١

(٢) معاني النحو لفاضل السامرائي ٥٨/١

(٣) الكشف لمحمود بن عمر الزمخشري ١٦٩/٣

(٤) البحر المحيط لابي حيان الاندلسي ٥٤٠/٧

كالذي قال به العكبري من عود الضمير الى السحاب أو الكسف في قوله تعالى: (ويجعله كسفا) ولكن العبرة برأي الأكثرية<sup>(١)</sup>.

وقد يعود الضمير على المصدر المفهوم من الفعل المتقدم نحو قولنا: (من صدق فهو خير له، ومن كذب فهو شر عليه) فالضمير يعود في الجملة الأولى الى الصدق وهو مأخوذ من الفعل صدق فهذا الفعل هو الدليل على هذا المصدر يشتركان في مادة الاشتقاق. وفي الجملة الثانية يعود الضمير الى (الكذب) المفهوم من مادة (كذب) ويلتقيان في الاشتقاق. ومن ذلك تقول للصابغ: (اتقن فهو سبب الخير والشهرة) أي الإتقان، وتقول للجندي: (اصبر فهو سبب النصر) أي الصبر<sup>(٢)</sup>.

وعلى ذلك يمكن فهم كثير من النصوص القرآنية التي من هذا القبيل كقوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة ٨) فإن مرجع الضمير (هو) مفهوم من الفعل (إعدلوا) لأن الفعل يتضمنه ويحتويه ويدل عليه ولكن من غير تصريح كامل بلفظ فهو (العدل) المفهوم ضمنا من قوله: (اعدلوا) واللفظان (اعدلوا) و (العدل) مشتركان في أصل المعنى العام وفي ناحية من مادة الاشتقاق<sup>(٣)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تَبُدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤَثِّمُوهَا فَالْفُسْرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (البقرة ٢٧١).

والمعنى فاحفظوها خير لكم، فالضمير: (هو) يعود الى الإخفاء ولم يتقدم ذكره بل تقدم فعله<sup>(٤)</sup>.

(١) ينظر الطبري، جامع البيان ٦٤/٢١، والعكبري ١٠٤٢/١

(٢) النحو الوافي ٢٥٧/١

(٣) النحو الوافي ٢٥٧/١

(٤) معاني النحو ٥٨، ٥٧/١

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ بِطَاعَتِهِمْ عَشْرَةَ مَسْكِينٍ﴾ (المائدة ٨٩) فالضمير في (فكفارتهم) يعود الى (العقد) المفهوم من الفعل (عقدتم)<sup>(١)</sup>.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ (الانعام ١١٢) فالضمير في (ما فعلوه) يعود الى الإيحاء المفهوم من الفعل (يوحى)<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْثَالَهُ يَذْكُرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ (الانعام ١٢١) فالضمير في (انه) يعود الى الأكل المفهوم من الفعل (تأكلوا)<sup>(٣)</sup> وكأنه قيل مالم يذكر اسم الله عليه في نفسه فسقاً على سبيل المبالغة<sup>(٤)</sup>.

والضمير في (قبله) يعود الى (الهدى) المفهوم من الفعل هداكم في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ (البقرة ١٩٨).

ونشير الى أن هذا الوجه هو احتمال من احتمالات متعددة وإن كان الأولى عوده الى المصدر كما يقول القرطبي<sup>(٥)</sup> فالضمير يمكن أن يعود الى القرآن والتقدير: (واذكروه كما هداكم بكتابه الذي بين لكم معالم دينه وان كنتم من قبل إنزاله عليكم من الضالين)<sup>(٦)</sup> وقيل يعود الى النبي صلى الله

(١) العكبري ، التبيان في اعراب القرآن ٥٨/١

(٢) العكبري ٥٣٩/١

(٣) الطبري ٢٢/٨

(٤) الرازي ، مفاتيح الغيب ٧٨/١٣

(٥) القرطبي، الجامع لاحكام القرآن ٢٨٢/٢

(٦) الرازي ١٤٦/٥

عليه وسلم كناية عن غير مذكور<sup>(١)</sup> والآية تحتل ثلاثة أوجه: الأول عود الضمير على المصدر وهو الأولى، والثاني إلى القرآن، والثالث إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو غير مذكور .

والضمير في (اليه) يعود إلى (اللقاء) من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة ٤٦)<sup>(٢)</sup>

والضمير (هو) يعود إلى الصبر المفهوم من (صبرتم) في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل ١٢٦)<sup>(٣)</sup>.

والضمير (هو) يعود إلى (التطوع) المفهوم من (تطوع) في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ (البقرة ٢٤٨)<sup>(٤)</sup>

والضمير في (انها) يعود إلى الاستعانة المفهومة من (استعينوا) في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (البقرة ٤٥)<sup>(٥)</sup> والضمير هنا يحتمل أوجه أخرى أشهر ما قيل فيها عود الضمير على الصلاة لأنها تكبر على النفوس مالا يكبر الصوم، وقيل عليهما ولكن كنى عن الأغلب وهو الصلاة<sup>(٥)</sup>

إلا أن هناك احتمالاً ضعيفاً ذهب إليه بعض العلماء وهو أن يعود إلى إجابة محمد صلى الله عليه وسلم لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو إليه، وقد ضعف الطبري هذا القول لأنه لم يجر للفظ الإجابة ذكر وقال: "وغير جائز ترك الظاهر المفهوم من الكلام إلى باطن لا دلالة على صحته"

(١) القرطبي ٢/٢٨٢

(٢) دراسات لاسلوب القرآن الكريم ٣٨/٨

(٣) العكبري ١/٨١

(٤) العكبري ١/١٥١

(٥) القرطبي ١/٢٣٥، ٢٥٤

### عود الضمير في القرآن الكريم

ويريد الطبري بالظاهر ماتعرفه العرب من كلامها، والباطن ما يستنبطه العلماء بالبحث <sup>(١)</sup> وما ذهب اليه الطبري هو عين الصواب، فلا يمكن أن نلجأ الى التفسير الغامض البعيد ونترك الواضح الظاهر المدعوم بالقرائن والسياق .

والضمير (هو) يعود الى المصدر (التعظيم) المفهوم من يعظم في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ (الحج ٣٠) أي التعظيم خير له عند ربه من التهاون بشئ منهى <sup>(٢)</sup> .

والضمير (هاء) يعود الى المصدر (المواعدة) المفهوم من واعدنا في قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ (الاعراف ١٤٢) <sup>(٣)</sup> والضمير في كلمة (به) يعود الى المصدر (النكوص) المفهوم من (تتكصون) في قوله تعالى: ﴿فَذَكَاتُ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ نَنكِصُونَ﴾ (٦٦-٦٧) (المؤمنون) <sup>(٤)</sup> .

والضمير في (اتخذوها) يمكن أن يعود الى المصدر (النداء) المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ (المائدة ٥٨) وقيل يعود الى الصلاة <sup>(٥)</sup> .

(١) الطبري ٣٧٢/١

(٢) القرطبي ٣٧/١٢، والعكبري ٩٤٠/٢

(٣) البحر المحيط ١٦٠/٥

(٤) البحر ٥٧٢/٧

(٥) الكشف ٦٣٧/١، والبحر ٣٠٣/٤

والضمير في (عنها) يعود الى (النقمة) المفهومة من (انتقمنا) في قوله تعالى: ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي أَيْمِهِ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (الاعراف ١٣٦) وقيل تعود الى الآيات<sup>(١)</sup>.

وفي قوله تعالى ﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيُّكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (يوسف ٩) فالضمير في (بعده) يمكن أن يعود الى مصدر (اقتلوا) أو (اطرحوه) أو الى يوسف (٢) .

وفي قوله تعالى: ﴿وَنُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِإِبَادِهِمْ كُبْرَىٰ ۚ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ﴾ (الكهف ٤-٥) فالضمير في كلمة (به) يمكن أن يعود الى المصدر المفهوم من (قالوا) أو (الاتخاذ) المفهوم من (اتخذ) وقيل يعود الى الله تعالى، وهذا التأويل أذم للكافرين (٣).

وفي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الاعراف ١٥٣) فالضمير في (بعدها) يعود الى عمل السيئات أو التوبة المفهومة من (تابوا)<sup>(٤)</sup>.

والأصل أن يعود الضمير الى المضاف اذا كان في الكلام مضاف ومضاف اليه نحو قولنا (جاء أخو خالد فأكرمته) فالإكرام هنا للأخ وليس لخالد .

(١) البحر ١٤٥/٥

(٢) الكشف ٤٣٠/٢

(٣) البحر ١٣٧/٧

(٤) البحر ١٨٥/٥

وكذلك قوله تعالى ﴿وَلِإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ (ابراهيم ٣٤) فالضمير في كلمة (لاتحصوها) عاد على المضاف وهو نعمة<sup>(١)</sup>.

وقد يعود الضمير الى المضاف اليه بحسب القرينة كقوله تعالى: ﴿فَاطْلِعْ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ (غافر ٣٧) فالضمير يعود الى المضاف اليه وهو موسى بحسب سياق الكلام. والقرينة لها شأن عظيم في فهم الكلام وكذلك قوله تعالى ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل ١١٤) فالضمير في (إياه) يعود الى (الله تعالى) مع أنه مضاف اليه لدلالة القرينة على ذلك<sup>(٢)</sup>.

وقد يحتمل عود الضمير الى المضاف أو المضاف اليه في قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾ (ال عمران ١٠٣) فالضمير في (انقذكم منها) يمكن أن يعود الى الشفا لأن الشفا من الحفرة<sup>(٣)</sup>.

ويمكن أن يعود الى الحفرة وهي مضاف اليه فاذا أنقذهم من الحفرة فقد أنقذهم من شفا الحفرة لأن شفاها منها<sup>(٤)</sup>.

ومن أساليب القرآن أن يخبر عن أحد الشئيين وهو لهما وذلك كثير موجود في كلام العرب في أشعارها ونثرها كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا بُحْرَةً أَوْ فَوًا أُنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ (الجمعة ١١) ففي قوله (انفضوا اليها) يعني اسرعوا الى التجارة وتركوك يا محمد على المنبر وذلك أن التجارة التي رأوها فانقض القوم اليها وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم قائما<sup>(٥)</sup> ولم يعلق

(١) معاني النحو ٥٩/١

(٢) معاني النحو ٥٩/١

(٣) الطبري ٥٠، ٥١/٤

(٤) الرازي ١٨١/٨

(٥) الطبري ١٣٢-١٣١/٢٨

الطبري على عود الضمير هنا مع أنه أمر لافت للنظر. وذهب البيضاوي الى أن المراد التجارة برد الكناية لأنها المقصودة، وقيل تقديره اذا رأو تجارة انفضوا اليها واذا رأوا لهوا انفضوا اليه<sup>(١)</sup> ويقصد بذلك أن الضمير بالافراد وهو (لهما) أي للهو والتجارة، ويبدو من الحادثة التي حصلت في ترك النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم أن السبب الأساسي كان هو التجارة بالدرجة الأولى نظرا لحاجتهم الماسة للطعام، وذهب الرازي الى أن الضمير يعود الى التجارة لما أنها أهم اليهم<sup>(٢)</sup> وقال الزجاج: انفضوا اليه واليه ومعناها واحد كقوله تعالى: (واستعينوا بالصبر والصلاة) (البقرة ٤٥)<sup>(٣)</sup> ففي قوله تعالى ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ جاء بالضمير في (وانها) بالافراد وهو للثنتين على قول بعض العلماء إلا أن هذا الضمير اختلفت التأويلات في مرجعه الى وجوه أخرى فقيل: انه عائد الى الصلاة أي صلاة ثقيلة إلا على الخاشعين. وقيل: عائد الى الاستعانة المفهومة من الفعل (استعينوا) أو عائد الى جميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل<sup>(٤)</sup> وذهب الدكتور.فاضل السامرائي الى عود الضمير الى الصلاة لأن الكلام على الصلاة وقد تقدم ذكرها والمطالبة بها في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة ٤٣)<sup>(٥)</sup> فسياق الآية واهتمامها يعود حول الصلاة بالمرتبة الأولى ثم نهاية الآية يعزز هذا القول من حيث ذكره الخشوع، والخشوع يكون في الصلاة . وذهب ابن كثير الى أن الضمير يعود

(١) البيضاوي، انوار التنزيل واسرار التأويل ٢١٢/٢-٢١٣

(٢) الرازي ١٢/٣٠

(٣) الرازي ١٢/٣٠

(٤) الرازي ٥٣/٢

(٥) معاني النحو ٥٨/١

### عود الضمير في القرآن الكريم

الى الصلاة وقال نص عليه مجاهد واختاره ابن جرير، ثم أضاف ابن كثير: ويحتمل أن يكون عائدا الى ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة ٣٤) فقال (ولا ينفقونها) بالافراد ولم يقل ولا ينفقونها بالتنثية لأن العرب تفهم ذلك والقرآن نزل بلغتهم، إلا أن هذا الوجه من التأويل لم يكن هو الوحيد بل هناك آراء أخرى في توجيه هذا الضمير، فقيل: انه يعود الى الأموال أو الى الكنوز المدلول عليها بالفعل، أو الى الذهب والفضة لأنهما جنسان ولهما أنواع فعاد الضمير الى المعنى، وقيل: يعود الى الفضة لأنها أقرب، وقيل: يعود الى الذهب وهو يذكر ويؤنث<sup>(٢)</sup>

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُونَ إِلَهًا لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة ٦٢) فافرد الضمير في (يرضوه) لأنهما في حكم مرضي واحد ومعلوم من كثير من الايات أن مرضاة الله هو مرضاة الرسول والعكس صحيح وذهب سيبويه الى أن التقدير والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه ثم حذف<sup>(٣)</sup> وذكر الرازي تفصيلا جميلا في عود الضمير في كلمة (يرضوه) يمكن ان نلخصه بالنقاط الآتية :

(١) انه تعالى لا يذكر مع غيره بالذكر المجمل بل يجب أن يفرد بالذكر تعظيما له

(٢) ان المقصود بجميع الطاعات والعبادات هو الله فاقتصر على ذكره

(٣) يجوز أن يكون المراد يرضوهما فاكتفي بذكر الواحد

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ١٠٣/١

(٢) العكبري ٧٤١/٢

(٣) القرطبي ١٢٣/٨، والعكبري ٦٤٩/٢

٥) لما وجب أن يكون رضا الرسول مطابقاً لرضا الله تعالى وامتنع حصول المخالفة بينهما وقع الاكتفاء بذكر أحدهما كما يقال (إحسان زيد وإجماله نعشني وجبرني)

وقد يسبق الضمير لفظ ليس مرجعه بنفسه ولكنه نظير للمرجع أي مثيله وشريكه فيما يدور بشأنه الكلام مثل: (لاينجح الطالب ألا بعمله ولا ترسب ألا بعملها) أي الطالبة . وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُّ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَقْصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ (فاطر ١١) أي من عمر معمر فأعيد الضمير على غير المعمر لأن ذكر المعمر يدل عليه لتقابلهما فكان يصاحبه الاستحضار الذهني<sup>(٣)</sup> .

(٣) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي ١٩/٤

### عود الضمير في القرآن الكريم

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴾ (يس ٨) فأعاد الضمير للأيدي لأنها تصاحب الأعناق في الأغلال، وأغنى ذكر الأغلال عن ذكرها<sup>(١)</sup>.

وقد يعود الضمير الى غير مذكور كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمُ ﴾ (ال عمران ٤٤) فقوله (لديهم) عائد على غير مذكور بل على مادل عليه المعنى أي ما كنت لدى المتنازعين كقوله فَأَثَرَنَ بِهِ نَقْعًا (العاديات ٤) أي بالمكان<sup>(٢)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ (الأنفال ١) ضمير الفاعل ليس عائداً على مذكور قبله وإنما تفسره وقعة بدر فهو عائد على من حضرها من الصحابة<sup>(٣)</sup> وهذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله أصحابه يوم بدر عن الأنفال<sup>(٤)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ فِي الْبَحْرِ مِثْقَالُهَا ﴾ (النور ٣٥) فقوله : (نوره) يمكن أن يعود الى محمد صلى الله عليه وسلم أو الى المؤمنين أو الى القرآن والايمان . وهذه الأقوال الثلاثة عاد الضمير فيها الى غير مذكور بخلاف عوده الى الله تعالى<sup>(٥)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (البقرة ١٤٦) الضمير في (يعرفونه) يعود الى الرسول في أحد الأقوال وجاز الاضمار وإن لم يجر له ذكر لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع،

(١) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي ١٩/٤

(٢) البحر ١٥٠/٣

(٣) البحر ٢٦٨/٥

(٤) النكت والعيون لعلي بن محمد الماوردي ٢٩٢/٢

(٥) البحر ٤٧/٨

وذهب الرازي الى أن الضمير في (يعرفونه) يعود الى الرسول وهو أولى من غيره من وجوه :-

(١) أن الضمير انما يرجع الى مذكور سابق وأقرب المذكورات العلم في قوله ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ أَوَّلِهِ ﴾ والمراد من العلم النبوة، وأما أمر القبلة فما تقدم ذكره البتة

٢) ان الله تعالى ما أخبر في القرآن أن أمر تحويل القبله مذكور بالتوراة والانجيل وأخبر فيه أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مذكورة في التوراة ولا الأنجيل، فكان صرف هذه المعرفة الى أمر النبوة أولى .

(٣) ان المعجزات لا تدل أدل دلالتها إلا على صدق محمد عليه السلام، فأما أمر القبلة فذلك انما ثبت لأنه أحد ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فكان صرف هذه المعرفة الى أمر النبوة أولى<sup>(٢)</sup>. وذكر القرطبي المرجع الى الرسول والى القبلة من دون ترجيح<sup>(٣)</sup>.

وقد يعود الضمير الى مايدل عليه حساً، فقد يستغنى عن ذكر الاسم الذي يعود عليه الضمير بما يدل عليه حساً نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾ (يوسف ٢٦) و ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ (يوسف ٢٦) فالضمير يعود الى امرأة العزيز ولم يتقدم لها ذكر صريح فهو مدلول عليه حساً، ومثله قوله تعالى: ﴿قَالَتِ إِحْدَاهُمَا يَتَّابَتِ أَتَشْتَجِرُهُ﴾

(١) الكشف ٢٠٣/١، والبحر ٣٢/٢

(۲) الرازی ۴/۱۴۴

(٣) القرطبي ١١٠/٢

### عود الضمير في القرآن الكريم

(القصص ٢٦) فالضمير يعود الى موسى وذلك لأن الكلام يدور عليه وهو مدلول عليه بالحس<sup>(١)</sup>.

وقد يكون الضمير متصلاً بشئ وهو لغيره كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (المؤمنون ١٢) يقصد آدم ثم قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ (المؤمنون ١٣) فهذه لولده لأن آدم لم يخلق من نطفة ، وأطلق السيوطي على ذلك مصطلح (الاستخدام)<sup>(٢)</sup>.

وقد يعود الضمير الى أشياء متلازمة، نحو قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الاسراء ١٠٩) فيمكن أن يفهم من الآية أن الضمير يعود الى القرآن أو المتلو أو البكاء أو السجود<sup>(٣)</sup> ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ (النور ٦٣) فالضمير في (عن أمره) يمكن أن يعود الى الله تعالى والى الرسول صلى الله عليه وسلم فهما متلازمان، فمخالفة الله هي مخالفة الرسول، ومخالفة الرسول هي مخالفة لله تعالى<sup>(٤)</sup>. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (الاسراء ٢) فيمكن أن يعود الضمير في (جعلناه) الى الكتاب أي التوراة ويمكن أن يعود الى موسى ولاتناقض في ذلك<sup>(٥)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهٖ الْحَقُّ﴾ (الانعام ٦٦) فالضمير في كلمة (به) يمكن ان يعود الى القرآن أو العذاب أو الوعيد أو

(١) معاني النحو ٥٧/١

(٢) الاتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ٢٣٠

(٣) العكبري ٨٣٦/٢ ، ودراسات لاسلوب القرآن الكريم ٨٣/٨

(٤) الرازي ٤٢/٢٤

(٥) الطبري ٤٥/٢٤/١٥ ، والقرطبي ١٣٩/١٠

وقد يكون الترجيح للضمير بسبب الظروف المحيطة بالقصة أو الحادثة، من ذلك قوله تعالى ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ (التوبة ٤٠) فقال (عليه) وأكثر الأقوال على أنه أبو بكر لأنه هو الذي كان منزعاً، وقيل يعود على

(٤) دراسات لاسلوب القران الكريم ٧٣/٨

### عود الضمير في القرآن الكريم

الرسول صلى الله عليه وسلم، وقيل عليهما وأُفرد لتلازمهما ، والظاهر عوده على أبي بكر<sup>(١)</sup>.

ومن المواضع التي اختلف في ترجيح الضمير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرِ صَفْقَتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (النور ٤١) فالضمير في (علم) له عدة احتمالات: الأول يعود الى الله تعالى أي كل قد علم الله صلاته وتسبيحه، والثاني أن يعود الضمير الى لفظ (كل) ورجح الطبري ذلك وقال انه الأقوى لأنه جاء برفع (كل) على الابتداء فيرجع ضمير الفاعل اليه، ولو كان فيه ضمير اسم الله لكان الاولى نصب (كل)<sup>(٢)</sup>. والأصل في الضمير أن يعود الى الاسم المتقدم وقد يعود الى متأخر في اللفظ متقدم بالرتبة كقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (طه ٦٧) فالضمير عاد الى موسى وهو متأخر لفظاً متقدم رتبة ، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ عَنْ دُئْبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص ٧٨) وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمِذٍ لَا يَسْتَلْ عَنْ دُئْبِهِمْ إِيَّاسُ وَلَا جَعَانُ﴾ (الرحمن ٣٩)

والأصل توافق الضمائر في المرجع وهو أفضل من التشتيت، ففي قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ (طه ٣٩) قال بعضهم إن الضمير في (فاقدفيه) الثانية للتابوت وفي الأول لموسى عليه السلام، وقد عاب ذلك الزمخشري وجعله تنافرا وهو ما يتناقض مع الاعجاز، فذهب الى أن الضمائر كلها راجعة الى موسى، ورجوع بعضها الى موسى وبعضها الى التابوت فيه هجنة لما فيه من تنافر النظم الذي أصل الاعجاز<sup>(٣)</sup>.

(١) العكبري ٦٤٥/٢، والدراسات لاسلوب القرآن الكريم ٧٨/٨

(٢) معاني النحو ٥٧/١

(٣) الاتقان ٢٩١

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ<sup>(١)</sup> وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (الحجر ١٦-١٧) الضمير في (زينناها) عائد الى البروج لأنها المتحدث عنها والأقرب للفظ، وقيل الى السماء وهو قول الجمهور حتى لا تختلف الضمائر .

وقد يعود الضمير الى اللفظ أو المعنى كقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج ٢٧) الضمير في (يأتين) يعود الى (كل) وهو الابل الضوامر على المعنى أي على إبل ضامرة، ولو قال: (يأتي) على اللفظ صح<sup>(١)</sup> وفعل غير العقلاء كفعل المؤنث<sup>(٢)</sup> وأعاد الضمير الى الإبل تكرمة لها لقصدها الحج مع أربابها<sup>(٣)</sup> .

وفي بعض الأحيان يحصل الاتفاق في عود الضمير ولا يوجد خلاف في الآراء كقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ رَبِّي وَءَانِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُصِيَّتْ عَلَيْكُمْ﴾ (هود ٢٨) فالضمير في الفعل (عصيت) يعود الى الرحمة<sup>(٤)</sup> وكقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ (يونس ٧٤) فالضمير في كلمة (به) يعود الى نوح<sup>(٥)</sup> وكقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (التوبة ٣٣) فالضمير في (ليظهره) يعود الى الاسلام<sup>(٦)</sup> ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَا حِ

(١) الرازي ٢٩/٢٣

(٢) البيان ١٧٤/٢

(٣) القرطبي ٢٧/١٢

(٤) الطبري ٣٨/١٢، والقرطبي ١٩/٨

(٥) الطبري ١١/١٨٨، والعكبري ٢/٦٨٢

(٦) الطبري ١٠/١٥٠

### عود الضمير في القرآن الكريم

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴿ (الاعراف ١٤٥) فالضمير في قوله (فخذها) يعود الى الألواح<sup>(١)</sup> ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ (المائدة ١٦) فالضمير في كلمة (به) يعود الى الكتاب<sup>(٢)</sup> ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ (النساء ٣٥) فالضمير في الفعل (يريدا) يعود الى الحكيمين<sup>(٣)</sup>.

وهناك اختلاف في عود الضمير فيما يخص تذكيره وتأنيثه، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ (النحل ٦٧) ذكر الضمير في (منه) لأنه يعود الى (شيء) المحذوف أو الى معنى الثمرات وهو الثمر، أو الى النخل أي من ثمر النخل، أو الى المذكور<sup>(٤)</sup> ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ ﴾ (النحل ٩) الضمير في منها يعود الى السبيل وهو لفظ يذكر ويؤنث قال تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ (يوسف ١٠٨) فأنث وقال: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ (الاعراف ١٤٦) فذكر، وقيل: السبيل بمعنى سبل أي بمعنى الجمع فأنث على المعنى<sup>(٥)</sup>.

وقد يدخل موضوع عود الضمير بما يسمى الإخبار بالمصدر عن الذات ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَتَّبِعُ اللَّهُ أُمَّةً لِّسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ (هود

(١) الطبري ٧٨/٩

(٢) الطبري ٢٢١/٦، والرازي ١٩٤/١١

(٣) الطبري ١٠٨/٥، والعكبري ٣٥٥/١

(٤) العكبري ٨٠١/٢

(٥) الطبري ١١٢/١٤، ١١٣، والعكبري ٧٩٠/٢، وينظر المعجم المفصل في المذكر

والمؤنث ٢٣٧



وللسياق أثر كبير في فهم عود الضمير، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ (الأنعام ٦٦) الضمير في (به) له تعلق بالآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُلْزِقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۚ إِنَّظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥) فيمكن أن يعود الضمير في كلمة (به) على العذاب أو الوعيد أي بما نقول ونخبر ونوعد من الوعيد<sup>(١)</sup> ويمكن أن يعود الى تصريح الآيات، وذكر الرازي انه يمكن عوده الى القرآن وكل ذلك حق الوعيد والعذاب، وتصريف الآيات، والقرآن<sup>(٢)</sup>.

ومما له تعلق بالسياق قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ (الحديد ٢٢) الضمير في (نبرأها) يمكن أن يعود الى الأنفس<sup>(٣)</sup> ويقوي هذا الوجه القرب لهذه اللفظة من الضمير، ويمكن أن يعود الى الأرض، ويمكن أن يعود الى المصيبة<sup>(٤)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ (الروم ٥١) يرجح عود الضمير في (فرأوه) على الزرع وذلك بالرجوع الى سياق ما قبل هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم ٥٠) فدل عليه: (يحيي الأرض بعد موتها)<sup>(٥)</sup> أو (فانظر الى آثار

(١) الطبري ٢٩٦/٧

(٢) الرازي ٢٥/١٢

(٣) الطبري ٣٢٣/٢٧

(٤) البيان ٤٢٤/٢

(٥) العكبري ١٠٤٢/٢



### عود الضمير في القرآن الكريم

وبعضهم ذهب الى أن الضمير يعود الى (الاستهزاء) لأن لفظ الاستهزاء قد ورد قريبا من هذا الفعل<sup>(١)</sup>. وبعضهم عمم القول في عود الضمير الى الضلال والكفر والاستهزاء والشرك<sup>(٢)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ (يوسف ٢٠) الضمير في (فيه) يمكن أن يعود الى يوسف أي كان إخوة يوسف في يوسف من الزاهدين<sup>(٣)</sup> ويمكن أن يعود الى الثمن البخس<sup>(٤)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ (الاعراف ١٣) الضمير في (منها) يمكن أن يعود الى الجنة<sup>(٥)</sup> ويمكن أن يعود الى السماء كما يقول بعض المعتزلة<sup>(٦)</sup>.

ومن ذلك لفظ (الكتاب) وهو لفظ مشترك قد يقصد به القرآن وقد يقصد به التوراة، والسياق هو الذي يوضح مدلول اللفظ، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولُ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (المائدة ٤٤) الضمير في (عليه شهداء) يعود الى (كتاب الله) وكتاب الله هنا المقصود به التوراة وليس القرآن، والسياق يوضح ذلك فقال في أول الآية: (إنا أنزلنا التوراة) ثم قال بعد ذلك: (بما استحفظوا من كتاب الله) وهو يؤكد أن المقصود بالكتاب التوراة<sup>(٧)</sup>.

(١) العكبري ٢/٧٧٧

(٢) القرطبي ١٠/٧

(٣) الطبري ١٢/٢٢٧

(٤) الرازي ١٨/١١١

(٥) الطبري ٨/١٧٣

(٦) الرازي ١٤/٣٨

(٧) الرازي ١٢/٥



### عود الضمير في القرآن الكريم

وقيل: يعود الى القرآن فكأنه قال إن القرآن لحق نطق به الملك نطقاً مثل ما إنكم تتطقون<sup>(١)</sup>.

وفي قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ (الكهف ٥١) الضمير في (أشهدتهم) يعود الى إبليس وذريته، والسياق ما قبل هذه الآية يؤيده فيقول تعالى: ﴿أَفَسَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (الكهف ٥٠)<sup>(٢)</sup> وقيل يعود الى المشركين<sup>(٣)</sup>.

من ذلك يتبين أن السياق لأثر الأكبر في معرفة عود الضمير، وأكثر العلل والتوجيهات تعود في هذا الموضوع الى السياق، وهكذا هو شأن السياق في فهم جميع النصوص، ولا سيما النص القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا يمكن فهم أسرار التعبير القرآني إلا من خلال السياق، وهذا ما نجده واضحاً في مؤلفات الباحثين قدماء ومحدثين، مثال ذلك كتاب (درة التنزيل) للخطيب الاسكافي فهو قائم تحليله على السياق، وكذلك كتاب (ملاك التأويل) لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي. ومن المعاصرين الدكتور فاضل السامرائي معظم كتبه قائم على التحليل من خلال السياق، هكذا هو شأنه في (التعبير القرآني) و (المسات بيانية) و (من بلاغة الكلمة) ويقول الدكتور فاضل (قد تكون للسياق التي ترد فيه الآية سمة تعبيرية خاصة فتتردد فيه ألفاظ معينة بحسب تلك السمة، وقد يكون للسورة كلها جو خاص وسمة خاصة فتتطبع ألفاظها بتلك السمة، وهذا واضح وكثير في ألفاظ القرآن الكريم إذ كثيراً ما نرى تعبيرين يتشابهان إلا في لفظ واحد، وإذا ما دققنا النظر وجدنا أن كل لفظة اختيرت بحسب السمة التعبيرية لهذا السياق أو

(١) الرازي ٢٨/٢١١

(٢) الطبري ١٥/٣٢٦، والعكبري ٢/ ٨٥٤

(٣) القرطبي ١١/ ٣

وفي مرجع الضمير الى جمع المؤنث العاقل فالأفضل أن يكون ضميره نون جمع المؤنث وهي نون النسوة في جميع حالاته نحو (الطالبات

(۵) دراسات لاسلوب القرآن ۸ / ۵۴

### عود الضمير في القرآن الكريم

حضرن) جمع المؤنث سالم أو جمع تكسير للمؤنث نحو (الغوالي تعلمن) وهو أولى من قولنا (الطالبات حضرت والغوالي تعلمت) حيث يكون الضمير مفرداً مؤنثاً مع صحة مجيئه بدلاً من نون النسوة، فاستعمال أحد الضميرين صحيح فصيح ولكن نون النسوة في هذه الصورة أصح وأفصح<sup>(١)</sup> وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ﴾ (البقرة ٢٣٣)<sup>(٢)</sup>.

ومرجع الضمير الى جمع التكسير الذي مفرده غير عاقل أو مؤنث غير عاقل جاز في الضمير أن يكون مفرداً مؤنثاً وأن يكون نون النسوة الدالة على جمع الاناث نحو: (الكتب نفعت أو نفعن) ومثل (الزروع أثمرت أو أثمرن) ومثل (الليالي ذهب أو ذهبن) ومع أن الأمرين في صورتى المفرد غير العاقل جائزان نرى الأساليب الفصحى تؤثر الضمير المفرد المؤنث اذا كان المراد من جمع التكسير الدلال على الكثرة، وتأتي بنون النسوة اذا كان المراد على القلة، فيقال: (قضيت بالقاهرة أيام خلت من شهرنا) اذا كان المنقضي هو الأكثر<sup>(٣)</sup>، أو خلون اذا كان المنقضي هو الاقل، ويقولون: (هذه اقلام تكسرت وعندي اقلام سلمن) اذا كان عدد المكسور هو الأكثر وهذا ما نطق به القرآن الكريم قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ رَوْضَ فِيهِمْ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ (البقرة ١٩٧) فأعاد الضمير عليهن بالجمع لأنهن ثلاث أشهر، وقال: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح ١٥ - ١٦) فأعاد الضمير على السماوات بصيغة الجمع لأنهن سبع<sup>(٤)</sup>.

(١) النحو الوافي ١ / ٢٦٤

(٢) معان النحو ١ / ٥٩

(٣) النحو الوافي ١ / ٢٦٤ - ٢٦٥

(٤) معاني النحو ١ / ٦٠

وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ (البقرة ٣١) قرأ أبي (ثم عرضها) وقرأ عبد الله (ثم عرضهن) (٥).

(۵) دراسات لاسلوب القرآن ۸ / ۶۴

وقال الطبري : ولا تكاد العرب تكني بالهاء والميم إلا عن أسماء بني آدم والملائكة، وأما اذا كنت عن أسماء البهائم وسائر الخلق سوى من وصفت فأنها تكني عنها بالهاء والالف، أو بالهاء والنون، فقالت (عرضهن) أو (عرضها) وكذلك تفعل اذا كنت عن أصناف من الخلق كالبهائم والطيور وسائر أصناف الأمم وفيها أسماء بني آدم والملائكة فأنها تكني عنها بما وصفنا من الهاء والنون أو الهاء والالف . وربما كنت عنها اذا كانت كذلك بالهاء والميم نحو: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ (النور ٤٥) فكني عنها بالهاء والميم وهي أصناف مختلفة فيها الآدمي وغيره، وذلك وإن كان جائزا فإن الغالب المستفيض في كلام العرب ما وصفنا من إخراجهم كناية أسماء أجناس الامم اذا اختلطت بالهاء والالف أو الهاء والنون فلذلك قلت أولا بتأويل الآية أن تكون الأسماء التي علمها آدم أسماء أعيان بني آدم وأسماء الملائكة<sup>(١)</sup> .

وقال البيضاوي : الضمير فيه للمسميات المدلول عليها ضمنا اذ التقدير أسماء المسميات فحذف المضاف اليه لدلالة المضاف عليه<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن كثير : وهذه عبارته عما يعقل، وهذا الذي رجع به ليس بلازم فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب<sup>(٣)</sup>

(١) الطبري ٣١١/١

(٢) البيضاوي ٦٩/١

(٣) ابن كثير ٨٩/١

وقال الرازي : فلم قال: (عرضهم) ولم يقل: (عرضها) قلنا: لأنه لما كام في جملتها الملائكة والإنس والجن هم العقلاء فغلب الأكمل، لأنه جرت عادة العرب بتغليب الكامل على الناقص كلما غلبوا<sup>(١)</sup>.

وقد يعود ضمير الجمع على المثنى فمن ذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِينَ﴾ (الانعام ١٥٦) اعاد الضمير جمعا لأن كل طائفة منهم جمع<sup>(٢)</sup>

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (طه ١٢٣) فقال: (فما يأتينكم مني هدى) وهو خطاب الجمع وفي ذلك أجوبة كما ذكر الرازي :

١ قال أبو مسلم الخطاب لآدم ومعه ذريته ولابليس ومعه ذريته فلكونهما جنسين صح قوله (اهبطا) ولأجل اشتغال كل واحد من الجنسين على الكثرة صحّ قوله (فإما يأتينكم)

٢ لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلا للبشر والسبب اللذين منهما تفرعوا جعلاً كأنهما البشر أنفسهم فخطوب مخاطبتهم فقال (فإما يأتينكم) على لفظ الجماعة<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِنَكْتُمُهُمْ شَهِيدِينَ﴾ (الانبياء ٧٨) الضمير في (لحكمهم) يراد به المثنى ووقع الجمع موقع التنثية مجازاً، أو لأن التنثية جمع وأقل الجمع اثنان<sup>(٤)</sup> لأن

(١) الرازي ١٩٣/١

(٢) دراسات لاسلوب القرآن ٦٦/٨

(٣) الرازي ٢٢/ ١٣٠ - ١٣١

(٤) دراسات لاسلوب القرآن الكريم ٦٦/ ٨

### عود الضمير في القرآن الكريم

الاثنين جمع في المعنى يعني حكم سليمان وداود<sup>(١)</sup> وقيل: المراد الحاكمان والمحكوم عليه فذلك قال: (لحكمهم)<sup>(٢)</sup>.

وقد يراد من الجمع الواحد كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الانباء ٣٠) وانما قال كانتا رتقا ولم يقل: (كن) لأن السماوات لفظ الجمع والمراد به الواحد الدال على الجنس . قال الأخفش: السماوات نوع والأرض نوع ومثله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ (فاطر ٤١) ومن ذلك قولهم أصلحنا بين القومين، ومرت بنا غنمان أسودان لأن هذا القطيع غنم وذلك غنم<sup>(٣)</sup>.

وقال أبو إسحاق (كانتا) لأنه يعبر عن السماوات بلفظ الواحد بسماء ولأن السماوات كانت سماء واحدة وكذلك الأرضون ، وقال: (رتقا) ولم يقل: (رتقين) لأنه مصدر والمعنى كانتا ذواتي رتق<sup>(٤)</sup>.

وقال الطبري: فان قال قائل: وكيف قيل إن السماوات والأرض كانتا، فالسماوات جمع وحكم جمع الاناث أن يقال: في قليله (كن) وفي كثيره (كانت) قيل: إنما قيل ذلك كذلك لأنهما صنفان، فالسماوات نوع والأرض آخر وذلك نظير قول الأسود بن يعفر:

إذا المنية والحتوف كلاهما توفي المخرام يرقبان سوادي

فقال: كلاهما وقد ذكر المنية والحتوف لما وصفت من أنه عنى النوعين وروى الطبري عن أبي عبيده عن القطامي:

الم يحزمك ان حبال قيس وتغلب قد تباينت انقطاعا

(١) البرهان ٤ / ٢١

(٢) القرطبي ١١ / ٢٠٣، والرازي ٢٢ / ١٩٦

(٣) الرازي ٢٢ / ١٦٣

(٤) القرطبي ٢١ / ١٨٧

وأحيانا يحصل توسع في المعنى بسبب عود الضمير ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر ١٠) فالضمير في كلمة (يرفعه) يحتمل عوده الى الله تعالى ويحتمل عوده الى الكلم فيمكن أن

(٤) الطبری ٢٢ / ٤٠

### عود الضمير في القرآن الكريم

يكون الله تعالى يرفع العمل الصالح، أو العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، أو الكلم الطيب يرفع العمل الصالح، ولو قيلت بنصب (العمل) لكان العمل الصالح مرفوعاً لا رافعاً<sup>(١)</sup>.

ويقول الطبري: ويرفع ذكر العبد ربه إليه عمله الصالح وهو العمل بطاعته وأداء فرائضه والانتهاه إلى ما أمر به<sup>(٢)</sup>.

وذهب القرطبي إلى أن معناه يرفعه الله أو يرفع صاحبه، ويجوز أن يكون المعنى والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فالكناية في (يرفعه) ترجع إلى الكلم الطيب وهو قول ابن عباس وشهر بن حوشب وسعيد ابن جبير وغيرهم، وعلى أن (الكلم الطيب) هو التوحيد فهو الرفع للعمل الصالح، لأنه لا يقبل العمل الصالح إلا مع الإيمان والتوحيد، أي والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، ورجح النحاس القول بأن الله تعالى هو الرفع وهو في العربية أولى لأن القراء اتفقوا على رفع (العمل)<sup>(٣)</sup>.

وذهب البيضاوي إلى أن الكلم يرفع العمل لأن العمل لا يقبل إلا بالتوحيد، والكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء وقراءة القرآن<sup>(٤)</sup>.

وقال الرازي: وفي الهاء يعني في (يرفعه) وجهان أحدهما هي عائدة إلى الكلم الطيب أي العمل الصالح هو الذي يرفعه العمل الطيب، ورد في الخبر: (لا يقبل الله قولاً بلا عمل) وثانيهما هي عائدة إلى العمل الصالح فعلى هذا فالفاعل الرفع وجهان أحدهما هو الكلم الطيب أي الكلم الطيب

(١) الجملة العربية والمعنى لفاضل السامرائي ١٥٦

(٢) الطبري ٢٢ / ١٤٤

(٣) القرطبي ١٤ / ٢١١ - ٢١٢، وينظر مشكل اعراب القرآن لمكي القيسي ٩٣٤

(٤) البيضاوي ٤ / ٢٥٥

يرفع العمل الصالح، وهذا يؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَوْهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (غافر ٤٠) وثانيهما الرافع هو الله تعالى<sup>(١)</sup>.

ومن أمثلة التوسع في المعنى أيضا قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (فاطر ٨) فذا يحتمل أكثر من دلالة، فقد يحتمل أن يكون ضمير فاعل (يشاء) يعود الى الله أي يضل من يشاء الله إضلاله ويهدي من يشاء الله هدايته ويحتمل أن يكون ضمير فاعل (يشاء) يعود الى البشر المكلفين فيكون المعنى يضل الله من يشاء الضلالة ويهدي من يشاء الهداية، أي أن من أراد الضلالة يبقيه الله على ضلالة ومن أراد الهداية ييسر له الهداية<sup>(٢)</sup>.

وقد يتنوع مرجع الضمير بحسب تنوع الخطاب، فقد يأتي الخطاب الواحد بلفظ الجمع، أو خطاب الاثنين بلفظ الواحد، أو خطاب الجميع بعد الواحد، وغير ذلك من وجوه المخاطبات. فمن أمثلة ذلك خطاب الواحد بلفظ الجميع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ الى قوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ﴾ (المؤمنون ٥١ - ٥٤) فهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وحده، إذ لا نبي معه قبله ولا بعده<sup>(٣)</sup>.

قال الطبري: يقول تعالى ذكره وقلنا لعيسى يا أيها الرسل كلوا من الحلال الذي طيبه الله لكم دون الحرام، تقول في الكلام للرجل الواحد: أيها القوم كفوا عنا أذاكم، وكما قال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ (آل عمران ١٧٣) وهو رجل واحد هو نعيم ابن مسعود<sup>(٤)</sup>.

(١) الرازي ٢٦ / ٩

(٢) الجملة العربية والمعنى ٧٥

(٣) البرهان ٢ / ١٤٠

(٤) الطبري ٢٨ / ٣٢

وقال القرطبي : ودل الجمع على أن الرسل كلهم كذا أمروا، أي كلوا من الحلال كما تقول لتاجر: يا تاجر ينبغي أن تجتنبوا الربا . فأنت تخاطبه بالمعنى . وقد اقترن بذلك أن هذه المقالة تصلح لجميع صنفه، فلم يخاطبوا قط مجتمعين صلوات الله عليهم أجمعين، وإنما خوطب كل واحد في عصره<sup>(١)</sup>.

وذهب الرازي الى أن ظاهر قوله : (يا أيها الرسل) خطاب مع كل الرسل وذلك غير ممكن لأن الرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة متفرقة مختلفة، فيمكن توجيه هذا الخطاب على أن المعنى الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بهذا المعنى ووصى به ليعتقد السامع أن أمرا نودي له جميع الرسل ووصوا به حقيقا بأن يؤخذ به ويعمل عليه<sup>(٢)</sup>. وقيل النداء له ولفظ الجمع للتعظيم<sup>(٣)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَسَّيْتُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (هود ١٤) والمخاطب هو النبي صلى الله عليه وسلم لقوله: ﴿قُلْ قَاتُوا﴾ (هود ١٣)<sup>(٤)</sup>. قال الطبري : قل يا محمد لهؤلاء المشركين فإن لم يستجب لكم من تدعون من دون الله الى أن يأتوا بعشر سور مثل هذا القرآن مفتريات، ولم تطبقوا أنتم وهم أن تأتوا بذلك، فاعلموا وأيقنوا أنه إنما أنزل من السماء على محمد صلى الله عليه وسلم بعلم الله وإذنه، وأن محمدا لم يفتريه ولا يقدر أن يفتريه<sup>(٥)</sup>. وقد قيل إن قوله: (فإن لم يستجيبوا لكم) خطاب من الله لنبيه كأنه

(١) القرطبي ١٢ / ٨٦

(٢) الرازي ٢٣ / ١٠٥

(٣) البيضاوي ٤ / ٨٩

(٤) البرهان ٢ / ١٤٠

(٥) الطبري ١٢ / ١٥



### عود الضمير في القرآن الكريم

مسألة القوم الرد الى الدنيا إنما كانت منهم للملائكة الذين يقبضون روحهم، وإنما ابتدئ الكلام بخطاب الله تعالى لأنهم استغاثوا به ثم رجعوا الى مسألة الملائكة الرجوع والرد الى الدنيا، وكان بعض نحوي الكوفة يقول قيل ذلك لأنه مما جرى على وصف الله نفسه من قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (مريم ٩) في غير مكان من القرآن فجرى هذا على ذلك<sup>(١)</sup>.

وذهب القرطبي الى سبب قوله تعالى: (ارجعون) الى أقوال :

(١) قال: (ارجعون) ولم يقل: (ارجعني) جاء على تعظيم الذكر للمخاطب

(٢) وقيل: استغاثوا بالله عز وجل أولاً فقال قائلهم: (رب) ثم رجع الى

مخاطبة الملائكة فقال: ارجعون الى الدنيا .

(٣) وقيل: إن معنى (ارجعون) على جهة التكرير أي ارجعني ارجعني

ارجعني كما في قوله تعالى: (ألقيا في جهنم) (ق ٢٤) معناه ألق

ألق<sup>(٢)</sup> وكما قيل في (قفا) و (اطرقا)<sup>(٣)</sup>.

وقد يكون خطاب الواحد بلفظ الاثنين كقوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ (ق ٢٤)

والمراد مالك خازن النار<sup>(٤)</sup>.

قال الطبري : قال تعالى (ألقيا) فأخرج الأمر للقرين وهو بلفظ واحد

مخرج خطاب الاثنين، وفي ذلك وجهان من التأويل أحدهما أن يكون القرين

بمعنى الاثنين كالرسول، والاسم الذي يكون بلفظ الواحد في الواحد والتنشئة

والجمع فرد قوله: (ألقيا في جهنم) الى المعنى . والثاني أن يكون كما كان

بعض أهل العربية يقول وهو أن العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به

(١) الطبري ١٨ / ٦٨

(٢) القرطبي ١٢ / ٩٩ - ١٠٠

(٣) البيضاوي ٤ / ٩٥

(٤) البرهان ٢ / ١٤٣



وَعَنِ الشَّيْءِ فِيمَا (ق ١٧) اجتزئ بمعرفة السامعين معناه من ذكر فعل صاحبه<sup>(١)</sup>.

وقال القرطبي : فادم عليه السلام هو المخاطب وهو المقصود وأيضا لما كان الكاد عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخص... وإنما خصه بذكر الشقاء ليعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج<sup>(٢)</sup>.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَلَقَّيْنَاهُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً فَثَابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة ٣٧) ولم يقل: (عليهما) اكتفاء بالخبر عدول أحدهما بالدلالة عليه<sup>(٣)</sup>.  
قال القرطبي : قيل: (عليه) ولم يقل: (عليهما) وحواء مشاركة له في الذنب باجماع فالجواب :

١ - إن آدم عليه السلام لما خطب في أول القصة في قوله: (أسكن) خصه بالذكر في التلقي فلذلك كملت القصة بذكره وحده .

٢ - وأيضا فلأن المرأة حرمة ومستورة فأراد الله الستر لها ولذلك لم يذكرها بالمعصية في قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (طه ١٢١) .

٣ - وأيضا لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر لم تذكر<sup>(٤)</sup> .

وقد يأتي خطاب الجمع بعد الواحد كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ

مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ٨٧) فثنى في الأول ثم جمع ثم أفرد لأنه خطب أولا موسى وهارون لأنهما المتبوعان، ثم سيق الخطاب عاما لهما ولقومهما

(١) الطبري ٢٧٥/١٦-٢٧٦

(٢) القرطبي ١٦٨/١١

(٣) البرهان ١٤٤/٢

(٤) القرطبي ٢٢٢/١

باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأنه واجب عليهم، ثم خص موسى بالبشارة تعظيماً له<sup>(١)</sup>.

وقد أثنى ابن القيم على أسلوب هذه الآية فقال : هو من أحسن النظم وأبدعه، فانه ثنى أولاً، إذ كان موسى وهارون هما الرسولان المطاعان، ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما سواء، وإذا تبوءا البيوت لقومهما فهم لهما تبع . ثم جمع الضمير فقال: (وأقيموا الصلاة) لأن إقامتها فرض على الجميع، ثم وحد في قوله: (وبشر المؤمنين) لأن موسى هو الأصل في الرسالة وأخوه ردؤه ووزيره، وكما كان موسى الأصل في الرسالة فهو الأصل بالبشارة، وأيضاً إن موسى وأخاه أرسلوا برسالة واحدة وكانا رسولاً واحداً كقوله تعالى: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ (طه ٤٧) فهذا الرسول هو الذي قيل له: (وبشر المؤمنين)<sup>(٢)</sup>.

وقد يكون لموضوع استبدال الضمير بالظاهر تعلق بموضوع عود الضمير فقد يستبدل الضمير بالظاهر دفعاً للالتباس الحاصل، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنٍّ السَّوِّ عَلَىٰ دَائِرَةِ السَّوِّ﴾ (الفتح ٦) فقد كرر السوء لأن لو قال: (عليهم دائرته) لالتبس بان يكون الضمير عائداً الى الله تعالى<sup>(٣)</sup>. ومثاله أيضاً مما قد يقع فيه الالتباس بسبب الضمير قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (الاسراء ٧٨) فلو قال (انه) لأوهم عود الضمير الى الفجر<sup>(٤)</sup>.

(١) البرهان ١٤٥/٢

(٢) التفسير القيم لابن قيم الجوزية ٣٠٩

(٣) البرهان ٢٩٢/٢

(٤) البرهان ٢٩٣/٢

وقد يقع الظاهر موقع الضمير بسبب طول الكلام لأنه متى طال الكلام حسن إيقاع الظاهر موضع المضمرة كي لا يبقى الذهن مشتتاً بسبب ما يعود عليه الضمير فيقوته ما شرع فيه كما اذا كان ذلك في ابتداء آية أخرى كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة ١٤٣) وقوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ (البقرة ١٤٠)<sup>(١)</sup>.

وقد يستبدل الضمير بالظاهر لغرض الخصوص كقوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ (الاحزاب ٥٠) ولم يقل (لك) لأنه لو أتى بالضمير لأخذ جوازه لغيره كما في قوله تعالى: (وبنات عمك) (الاحزاب ٥٠) فعدل عنه الى الظاهر للتنبيه على الخصوصية وأنه ليس لغيره ذلك<sup>(٢)</sup>.

وقد يأتي بالظاهر للتوصل الى الوصف كقوله تعالى: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ (الاعراف ١٥٨) بعد قوله في صدر الآية: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الاعراف ١٥٨) ولم يقل: فأمنوا بالله وبني ليتمكن من إجراء الصفات التي ذكرها من النبي الأمي الذي يؤمن بالله، فإنه لو قال: (وبني) لم يتمكن من ذلك لأن الضمير لا يوصف، ليعلم أن الذي وجب الإيمان له والاتباع له هو من وصف بهذه الصفات كائناً من كان، أنا أو غيري إظهاراً للصفة، وبعداً من التعصب لنفسه<sup>(٣)</sup>.

ولموضوع عود الضمير تعلق بالأحكام الفقهية وفهم المراد منها ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَمْسُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة ٧٩) فقد يترتب على الخلاف في مرجع الضمير خلاف في الأحكام الفقهية تبعاً لذلك فقد اختلف في معنى (لا يمس) هل هو حقيقة في المس بالجارحة أم معنى وكذلك

(١) البرهان ٢/٢٩٩

(٢) البرهان ٢/٢٩٦

(٣) البرهان ٢/٢٩٤

اختلف في (المطهرون) من هم . وقد رجح ابن القيم أن المراد به الصحف التي بأيدي الملائكة لوجوه عديدة وهي أدلة قوية دامغة، وهذا هو شأن الامام ابن القيم رحمه الله في كل ما يستدل به يأتي بالأدلة ليعزز بها كلامه، وهو لا يكتفي بالدليل الواحد أو الدليلين وإنما يذكر أدلة كثيرة منطقية ومقنعة، والأدلة التي قال بها في هذه الآية نذكر منها :

١- إنه وصفه بأنه مكنون، والمكنون المستور من العيون، وهذا إنما هو بالصحف التي بأيدي الملائكة .

٢- ومنها أنه قال: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ وهم الملائكة ولو أراد المؤمنين لقال: (المتطهرون)، فالملائكة مطهرون والمؤمنون المتوضئون متطهرون .

٣- ومنها إن هذا إخبار، ولو كان نهياً لقال: (لا يمسسه) بالجزم، والأصل بالخبر أن يكون خبراً صورة ومعنى

٤- ومنها أن الآية مكية في سورة مكية تتضمن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد وإثبات الصانع والرد على الكفار، وهذا المعنى أليق بالمقصود من فرع عملي وهو مس المحدث المصحف<sup>(١)</sup> .

(١) التفسير القيم ٤٨٢/٤٨٣

## الخاتمة

يتلخص من البحث النقاط الآتية :

- (١) أسلوب القرآن معجز، لذلك احتمل كثيراً من المعاني وكثيراً من الوجوه، ومن ذلك أيضاً صلاحية الضمير لأن يعود لأشياء متنوعة سبقتها، وقع ذلك في القرآن كثيراً جداً .
- (٢) ليس كل المفسرين سواء بالتنبيه على عود الضمير، ومن أبرز الذين اهتموا بهذا الجانب أبو حيان في البحر المحیط، ولذلك كان هذا الكتاب من أهم مراجع الأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة في موسوعته (دراسات لأسلوب القرآن الكريم) .
- (٣) يعود الضمير الى الأقرب ويجوز مع القرينة أن يعود ألى الأبعد .
- (٤) عود الضمير على المحدث عنه أولى من عوده على الأقرب .
- (٥) عود الضمير الى المضاف الذي هو أحد جزئي الاسناد أولى .
- (٦) جاء في القرآن كثيراً من عود الضمير الى المصدر الذي يدل عليه الفعل أو الوصف .
- (٧) في آيات كثيرة عاد الضمير الى غير مذكور في الكلام لدلالة المعنى عليه.
- (٨) جرى الضمير مجرى اسم الإشارة، فكان مفرداً وعاد الى مثني أو متعدد في آيات كثيرة .
- (٩) قد يعود الضمير على اللفظ وقد يعود على المعنى بحسب تأويله تذكيراً وتأنيثاً .
- (١٠) جمع التفسير لما لا يعقل فرق فيه بين قليله وكثيره، فالأفصح في قليله أن يجمع الضمير، والأفصح في كثيره أن يفرد، ويجوز العكس .
- (١١) عاد ضمير الجمع على المثني في القرآن وهذا يرجح رأي من يقول أن أقل الجمع اثنان، وقد يعود ضمير المثني على الجمع أيضاً .

١٢) قد يراد من الجمع الواحد، وقد يراد من المفرد الجمع، وقد يراد من ضمير المثنى الواحد .

١٣) موضوع عود الضمير له تعلق بموضوعات أخرى كموضوع تنوع الخطاب القرآني، والتوسع في المعنى، وكذلك له تعلق بالأحكام الفقهية .

١٤) أهم وسيلة لفهم وتحديد موضع مرجع الضمير هو معرفة السياق الذي يرد فيه الضمير، ولا يمكن فهم أي نص فهماً سليماً الا من خلال معرفة السياق.

## المصادر والمراجع

### • القرآن الكريم

- (١) الإنشقاق في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) ضبطه وصححه وخرج آياته محمد سالم هاشم - دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ٢٠٠٧ م .
- (٢) البرهان في علوم القرآن - بدر الدين الزركشي (٧٩٤ هـ) دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ٢٠٠٧ م
- (٣) البيان في غريب إعراب القرآن - أبو البركات ابن الأنباري (٣٠٨ هـ) - تحقيق الدكتور طه عبد الحميد
- (٤) التبيان في إعراب القرآن - أبو البقاء العكبري (٦١٦ هـ) تحقيق علي محمد البجاوي
- (٥) التعبير القراني - الدكتور فاضل السامرائي - دار عمان، الطبعة الرابعة ٢٠٠٦ م
- (٦) تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل - عبد الله بن عمر البضاوي (٦٩١ هـ) إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م
- (٧) تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٧٤٥ هـ) دار الفكر - طبعة بعناية عرفان العشاحسون ومراجعة صدقي محمد جميل
- (٨) تفسير جامع البيان - ابن جرير الطبري (٣١٠ هـ) دار الفكر - قدم له الشيخ خليل الميس ١٩٩٩ م .
- (٩) تفسير الجامع لأحكام القرآن - محمد بن أحمد القرطبي (٦٧١ هـ) تحقيق سالم مصطفى البدري - دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م
- (١٠) تفسير القرآن العظيم - إسماعيل ابن كثير (٧٧٤ هـ) اعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م .

- (١١) تفسير الكشاف - محمد ابن عمر الزمخشري (٥٣٨ هـ) رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين - دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٥ م
- (١٢) تفسير مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي (٦٠٤ هـ) قدم له الشيخ خليل محيي الدين الميس، دار الفكر ١٩٩٥ م .
- (١٣) تفسير النكت والعيون - علي بن محمد الماوردي (٤٥٠ هـ) راجعه وعلق عليه عبد المقصود بن عبد الرحيم، مؤسسة الكتب الثقافية
- (١٤) جامع الدروس العربية - مصطفى الغلاييني (١٩٤٤ م) ضبطه وخرج آياته وشواهد الشعرية الدكتور عبد المنعم خليل ابراهيم - دار الكتب العلمية، الطبعة السابعة ٢٠٠٦ م
- (١٥) الجملة العربية والمعنى - الدكتور فاضل السامرائي - دار الفكر، الطبعة الأولى ٢٠٠٧ م .
- (١٦) دراسات لأسلوب القرآن الكريم - محمد عبد الخالق عظيمه - دار الحديث ٢٠٠٤ م .
- (١٧) مشكل إعراب القرآن - مكي بن أبي طالب القيسي (٤٣٧ هـ) تحقيق محمد عثمان، الطبعة الأولى ٢٠٠٩ م مكتبة الثقافة الدينية .
- (١٨) معاني النحو - الدكتور فاضل السامرائي - دار الفكر - الطبعة الثانية ٢٠٠٢ م .
- (١٩) المعجم المفصل في المذكر والمؤنث - اعداد الدكتور أميل يعقوب - دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ٢٠٠١ م .
- (٢٠) النحو الوافي - عباس حسن .



